حرب ونضال

تأملات فى مجاهل الكون

للدكتور محمد محمود غالى

عندما اندلعت ألسنة الحرب فى سبتمبر الماضى كتبنا مقالاً فى « الرسالة » تحت عنوان « فلنستمر »[1] ، اعتزمنا فيه مواصلة الكتابة رغم مجابهة العالم لمحنة قاسية لم يعهدها من قبل ، ورجونا ألا تصرفنا الحوادث عن أداء هذه المهمة ، وليست الكتابة بالأمر الذى يستطيع الإنسان المضى فيه وهو مشغول الفكر مضطرب البال ، وإنما لهدوء النفس والنزوع إلى الكتابة أثرهما الواضح فى النجاح والقدرة على التسطير . فالكتابة لا تُقصد لذاتها ، وإنما تقصد لما ترمى إليه ؛ وإن الذى تُترَكُ له صحيفة ليملأها ، يجب أن يكون أهلاً لأن يفيد القراء ، وإلا فليترك المجال لمن هو أقدر على أن يكون أكثر فائدة لهؤلاء الذين يهبون بعض أوقاتهم للمطالعة

ولقد خصَّصتْ « الرسالة » صفحة لمباحث علمية توخينا أن نخط فيها هيكل الكون ، وحاولنا أن نلفت النظر إلى ما فيه من تناسق ؛ ووالينا كتابة هذه المقالات العديدة التى نسرد فيها قصة التقدم ، فقطعنا فى ذلك شوطاً بعيداً ، واستعرضنا للقارئ بعضاً من الخطوات العلمية الكبرى التى توصل إليها العلماء فى العهد الأخير ، وفيها ما له علاقة بتقدم الإنسان فى حاضره ومستقبله

وقد تابعنا هذا الاستعراض وفق تفكيرنا ، فظفت مسائل أخرى عُنينا بشرحها أكثر من غيرها ، إذ كان لبعضها علينا أثر خاص ، وللبعض الآخر فى اعتقادنا سهم فى محور التقدم ، ولا شك فى أنه كان لنا تعلمناه عن قصد أو غير قصد ، وما طالعناه عن رغبة أو مصادفة أثر فى هذا التكييف

وما كنت أعتقد أن الحوادث فى العالم الغربى الذى عنه ندرس وعلى ضوء مؤلفاته نتكون تتطور بهذه السرعة الخاطفة ، وما كنت أعتقد أن سرعتها هذه تؤثر على نفسى فى الأسبوع الماضى هذا التأثير الذى سلبنى فى تلك الآونة الصفات التى تجعل منى شخصاً مفيداً للقارىء ، لذلك تنحيت عن عمد ريثما تهدأ النفس ويستقر الفكر فأستطيع أن أتابع السير فى هذه السطور. ولئن أسرعنا فى كبح جماح النفس عن الاسترسال فيما يسوقها إلى الاضطراب ويدفع بها إلى الوجوم ؛ فإننا نطالب من القارىء أن ينحو بنفسه هذا النحو ، وقد يكون له فى متابعة هذه السطور التى نستعرض فيها الناحية الإيجابية من عمل الإنسان خير عزاء عن الناحية السلبية التى يتدفع إليها فريق من البشر ، وهى الناحية التى يستقى القارىء أنباءها فى الصحف اليومية ، عندئذ وكلما مر أسبوع يتصفح الرسالة ساعة يطالع فيها شيئاً غير الذى تقلب على نفسه فى يومياته وتملك الكثير من أوقاته ، هنا يرى فى قصة العلوم وفى سير الفلسفة ، فى تطور التفكير وفى تقدم الإنسان ، فى ازدهار التراث العلمى وارتقاء المعرفة ، أن الدنيا ما زالت بخير ، وأن الإنسان ما زال حياً يتوارث المعرفة ويعمل على تقدمها على كر الأيام

فلنستمر إذن فى عملنا وليستمر الذين يتابعون كتاباتنا فى فى مطالعة هذه المجالات التى نعالج بين ثناياها طرفاً من عظمة الإنسان كمخلوق راق لا كمخلوق تعس ، والتى يتجدد بها الأمل فضلاً عما فيها من عزاء للنفس . ولا ريب فى أن المحنة ستنتهى يوماً وأن الإنسان سواء أكان من أهل ألمانيا أو من أهل فرنسا وانجلترا سيدرك أن من خطل الرأى محاربة أخيه الإنسان ، وأن النضال بالكلام خير من النضال بالحديد والنار فيطرح هذه الآلات التى لا تترك وراءها إلا أشلاء تتناثر وأجساداً تتحول قبل الأوان ، ونفوساً أشفّها الحزن ، وقلوباً مزقها اليأس ، بل ويدرك أن توجيه الإنسانية صوب مدارج الرقى أولى من الرجوع بها القهقرى

ولو أن السلطات تركزت يوماً فى أيدى العلماء لانتظمت الحياة فى نسق يكفل سعادة البشر ، ولزال إلى الأبد كابوس هذه

(١) الرسالة العدد ٣٢٥ فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من ص ١٨٧٣ إلى ص ١٨٧٦

المجازر البشرية ، ولو أن ما أنفق على التسلح صرف فى رقى العلم ورفاهية الانسان لرأينا قبل أن نترك الحياة أو تتركنا مدنية أرقى من التى ننعم بها، ولعهدنا وسائل للعيش تختلف جد الاختلاف عما نعهده اليوم . فلنستمر إذن فى عملنا ولنتقدم نحو غايتنا مهما عاودتنا لحظات من الاضطراب ، فلا اضطراب لم يعقبه استقرار ، ولا حرب لم يعقبها سلم ، ولا عمل سلبى مهما طال لم يتله عمل إيجابى . ولتكن جميعاً معاول بناء لا معاول هدم ، بذلك نعاون فى بناء صرح المعرفة ونضيف إلى هيكل الحضارة

ولقد تركت عن عمد الجرائد اليوم لأتصل بالقارئ وتغلبت على نفسى بالاستماع إلى قطع موسيقية ، وكان فى « غابة فِينّا لستراوس » ، وفى « الرابسودى المجرية » للحنها « ليسْتْ » Lizst ما استحثنى على الكتابة وشدد قواى على التفكير ، وستكون غايتى اليوم أن أُرفِّه عن القارئ بكلمة من نسج الخيال ، ولكنه خيال جائز ، خيال له اتصال بالموضوعات الأخيرة التى تعرضنا لها

* * *

عند ما نتصفح أنباء المعارك الدامية بين البشر ندرس ناحية من صفات الإنسان الذى تطورت حالته على هذه الأرض من مخلوق عاجز عن القيام بتافه الأمور إلى مخلوق يستخدم ذكاءه فى ضرره مرة وفى نفعه أخرى . ثمة عقيدة بأن هذا المخلوق هو أرقى المخلوقات طرا لأنه سما على كل ما يدب على وجه الأرض بذكائه ومقدرته

وإن جاز لنا أن نعتقد أنه المخلوق الوحيد من نوعه فى الكون لتوافر اشتراطات طبيعية عديدة لاءمت وجوده على النحو الذى هو عليه لا يمكن أن تتوافر كاملة على غير هذه الأرض ، فلا يجوز لنا أن نجزم باستحالة وجود مخلوقات أخرى على الكواكب لها صفات تختلف عن صفات إنسان هذه الأرض

إنما يُجيز المنطق إن لم يُحتِّم على الباحث ألا ينفى وجود كائنات أخرى غيرنا على الكواكب ما دام الكون يشمل ملايين الكواكب السيارة ، وما دام بين هذه الكواكب حتما ما تسمح معه الظروف الطبيعية بإمكان وجود نوع من الحياة يشبه حياتنا ، أو نوع آخر من الحياة يختلف عنها ؛ على أن المنطق يدلنا أيضاً أنه لا يجوز لنا أن نعتقد بوجود أوجه شبه شديدة بيننا وبين هذه المخلوقات . وإذا كانت الأحوال الطبيعية الملائمة على سطح الأرض رغم تقاربها لم تكن كافية ليظهر فى نوع الإنسان رجال من شكل واحد ، فما أبلغ الفارق عند ما تختلف الأحوال الطبيعية بين ما فى الأرض وما فى غيرها من الكواكب وبالتالى بين سكان الأرض وغيرنا من الأحياء خارجاً عنها ؟ ، وإذا كان الرجل الجاوى أو الصينى الذى تنسم نسيم جاوه أو الصين يختلف كثيراً عن الرجل المصرى أو العراقى الذى يتنسم نسيم مصر أو العراق ، والذى تذوّق ماء النيل أو الفُرات ، ويختلف هذا وذاك عن الفرنسى مثلاً ، فما عسى أن يكون الفارق إن تحقق لنا ما يكون عليه مخلوق راق يعيش فى كوكب آخر غير كوكبنا وفى مجموعة شمسية غير مجموعتنا ؟

ونحن فى هذا تسوقنا فكرة الإشعاع إلى تصورات ينبغى التأمل فيها عندما نجيز لأنفسنا التحدث عن مثل هذه المخلوقات (١) التى نعتقد أن وجودها أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال

* * *

ذكرنا فى مقالاتنا الأخيرة أن الكون زاخر بمختلف الإشعاعات التى لا تراها عين الإنسان ولا تشعر بها حواسه ، وأن الضوء والكهرباء نوع واحد من الإشعاع ، وإننا لا نرى من الأشعة إلا شيئاً طفيفاً إزاء ما لا نراه . ذلك لأننا خُلقنا بحيث لا نرى من الكون إلا يسيراً من مكوناته العديدة المتدة بعيدة عن حواسنا

ولو أن كائناً غير الإنسان تكونت عنده حاسة النظر بطريقة يرى الأشياء بطولها وبعرضها ، ولكن لا يستطيع أن يدرك منها ارتفاعها (هذا النوع من الكائنات يجوز وجوده أو هو موجود فعلاً) ، فإن صور الأشياء تختلف عند هذا الكائن عن صورها عندنا ، فإذا امتد نظره من عَلِ إلى مركبة ترام رأى هذه المركبة مستطيلاً يسير بين خطين يمثلان حدّى الطريق الذى تسير فيه ، ورأى « الكمسارى » والسائق دائرتين إحداهما مجاورة لأحد أضلاعه والثانية تتنقل على حافته طوراً تقترب من ضلعه الأعلى وتارة تقترب من ضلعه الأسفل ، ويرى الجمهور دوائر كثيرة

(١) هذا ما سنشرحه فى المقال القادم

متراصة فى صفوف متوازية داخل هذا المستطيل المتنقل

إن هذا الكائن المسكين لا يستطيع أن يرانا على حقيقتنا ، فلا تطابنّ إليه ، وهو لا يرى من مركبة الترام إلا هذا المستطيل المتنقل ، أن يستوعب ما فيها من مادة الخشب أو يذهب فى الفكر إلى أكثر من ذلك فيفهم ما يحمله الخشب من أجهزة الكهرباء أو يفهم خواص أو ماهية هذه الظاهرة

ثمة ثلاثة مراحل فى التطور أمام هذا المخلوق :

الأولى : وهى التى وصل إليها فعلاً أن يرى الأشياء بمساقطها فيرى فى المركبات هذه المستطيلات المتحركة

الثانية : أن يدرك هذه المركبات بارتفاعها ويستوعب أيضاً مادتها

الثالثة : وهى أصعب هذه المراحل ، أن يدرك أعجب ما فى تركيبها فيفهم أننا نستخدم فيها ظاهرة عجيبة هى ظاهرة الكهرباء فيعلم بذلك أمراً خافياً خارجاً عن تركيبها الظاهرى ، أمراً يجعل لها شيئاً شبيهاً بالحياة إن صح أن الحركة من أهم مميزات الحياة .

* * *

نقف الآن عند هذا الحد من المقال ، وما قصدنا من هذه السطور إلا لتكون مقدمة للمقال القادم

إنما نترك للقارئ فرصة يتأمل فيها لماذا اخترنا هذا النوع من المخلوق العجيب الذى لا يرى من مركبات الترام إلا مستطيلات تتنقل فى الطرقات التى يراها خطوطاً ممتدة فى المدينة ، ولا يرى من جمهور الراكبين وهو ينظر إليهم من مستو عال إلى دوائر متراصة فى صفوف متوازية ، ولا يرى من « الكمسارى » إلا دائرة تتنقل على حافة هذا المستطيل

ولم يكن مقالنا اليوم بالموضوع الذى يشق على الفهم ، ويحتاج إلى طرف يسير من المقدمات العلمية ، أكان لموسيقى « ستراوس » و « ليست » سبب لكى ننحو هذا النحو من التأمل ؟ ربما كان لذلك أثر ؛ ولكن مما لا ريب فيه أننا كنا فى حاجة إلى هذه النغمات نستمع إليها بعد ما تملّك النفس من الاضطراب المتوالى فى الأيام الأخيرة ، ولا شك فى أن القارئ كان هو أيضاً فى حاجة إلى هذا النوع من الترفية عن النفس وتسكين الخاطر

وإلى المقال القادم ، فإننا فى حاجة إلى هذا المخلوق العجيب لكى نشرح موضوعاً يلتمع فى الذهن ويجول فى الفكر .

محمد محمود غالى
دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية . ليسانس العلوم الحرة . دبلوم الهندسخانة

١/٣ عدد الرجال لا يتمتعون ببهجة الحياة !

ويمكنك معرفة أسباب أمراض النساء وما يعانينه من فقدان النشاط والمزاج العصبى وعدم الميل إلى العمل ، والفشل فى الحياة الزوجية ، فقد أثبت العلم الحديث بما لا يقبل الشك أن فقدان الأعصاب هو السبب فى ٩٠ فى المائة من هذه الأمراض . فإذا حرم الجسم من كفايته من هذه المواد الغذائية الطبيعية حرم من النشاط ومن القوة الجاذبة وكل سبل التقدم . ولكن بما أنه قد صار الآن فى الإمكان تموين الجسم بهذه الهرمونات التى تفرزها الغدد فى شكل مستخرجات طبية ، فيمكن لجميع الرجال الذين يشكون من قلة الهرمونات فى أجسامهم أن يتذوقوا أنفسهم وفيه أكسب مستخرج « لولوبطس » شهرة فى هذا الشأن عن جدارة ، لأنه أول مستخرج للهرمونات معمول على أساس علمى وفيه كل عناصر الهرمونات وفقاً للتحليل الكيماوى . وهذا السر نجاح « لولوبطس » فى معالجة جميع الحالات التى فشلت فيها سائر الأدوية لأهل مصر فى كل ما يتعلق بالحياة الجنسية (بالغدد الجنسية) بيان نطالع كتاب « الحياة الجديدة » الذى يمكنك الحصول عليه نظير ٥ للنسخة الفرنسية أو الإنجليزية المحلاة برسوم ذات خمسة ألوان و ٣ للنسخة العربية ترسل طوابع بريد ألف بصندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر

احذروا سرعة القذف قابلة للشفاء بوساطة نوبطس ٣ || مجانا اطلب نسخة من البيان المصور من صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر أو فوض طلبك بطابع بريد ٥ مليمات

العلاج العلمى الحديث الذى أكسبه العلامة الشهير الدكتور ماجنوس هرشفيلد

(سجل تجارى (٥٢٢٧)